



مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies

أوراق نماء (١٠٦)

قراءة في كتاب: "مشكلة الشر ووجود الله:
الرد على أبرز شبهات الملاحدة"

قراءة: محمد مصطفى

مشكلة الشر ووجود الله

الرد على أبرز شبهات الملاحدة



تأليف الدكتور
سامي عامري



المؤلف: د. سامي عامري

الناشر: مركز تكوين للأبحاث والدراسات

من سلسلة إصدارات المؤسسة العلمية الدعوية العالمية

مبادرة البحث العلمي لمقارنة الأديان

الطبعة: الأولى عن المركز

عدد الصفحات: ٢٣١ تشمل الفهارس والمراجع

سنة النشر: ٢٠١٦م/١٤٣٧هـ

عاب المؤلف في **مقدمة الكتاب** على المؤسسات الرسمية للدعوة الإسلامية غفلتها وسلبيتها في مواجهة ظاهرة الإلحاد الحديث التي مكنت وسائل التواصل الشبكية سهولة نشرها، كما نبّه على ضعف المكتبة الإسلامية من حيث جمودها على القديم المكرر وعدم تناولها للإلحاد الدهري، وضعف اهتمامها بالدراسات الفلسفية الإلحادية الأحدث في محضنها الغربي التي تعتمد إلى توظيف المعارف العلمية كعلمي البيولوجيا والكوسمولوجيا في نصرة الأقوال الإلحادية، وقد عقد الأمل على جهود أهل العلم والمال في إنشاء مراكز بحثية بعيدة عن المؤسسات الرسمية تعمل على هذه الدراسات متبينة خيار المصاولة الفكرية المباشر مع الإلحاد.

بنية مشكلة الشر

مشكلة الشر تدخل فيما يعرف بمبحث الثيودثيا. بمعنى عدل الله، والجواب عنها يرمي إلى إثبات أن الشر الموجود في العالم لا يمنع من الإقرار بوجود إله. وتعرض إشكالية الشر عن طريق المطالبة بالتوفيق بين أربعة عناصر وهي:

- ١- وجود إله كامل العلم (omniscient).
- ٢- كامل القدرة (omnipotent).
- ٣- كامل الرحمة (omnibenevolent).
- ٤- وجود الشر في عالم الإنسان.

الإله العالم بوجود الشر والقادر على منعه والرحيم بخلقه لا يستقيم وجوده مع وجود الشر.

صخرة الإلحاد أو لماذا الحديث عن مشكلة الشر؟

فمن حيث تعيين السبب صرح الكثير من أئمة الإلحاد كـ "أنتوني فلو"، قبل تراجعهم عن دهريته، أنها الشبهة المركزية المسببة للإلحاد، وهي المادة الأولى في السجل الإيماني -الإلحادي بين المؤلّمين، حيث اقتصر عليها الفيلسوف البريطاني "ستيفن لاو" في مناظرته لـ "ويليام لين كريغ" كحجة نافية لوجود الخالق، وقد وظفها الفيلسوف "مايكل مارتن" في مؤلفه "الإلحاد: تبرير فلسفي" كعنوان للاعتراض الفلسفي وكدليل إيجابي على الإلحاد، ومشكلة الشر هي السؤال الإلحادي الشعبي الأكثر رواجًا كما جاء في سير أمريكي إجابة على سؤال: لو أتيح لك أن تسأل الله سؤالًا واحدًا تعلم أنه سيجيبك عنه.. ماذا سيكون هذا السؤال؟ كان السؤال الذي حصل على أعلى نسبة (١٧%) هو "لماذا هناك ألم ومعاناة في هذا العالم؟".

منهج المؤلف

1 There Is a God : by Antony Flew

يسعى المؤلف إلى بيان أن الشر لا يشكل حجة منطقية أو ترجيحية لنفي وجود الله، وأن الإسلام يعد بتقديم حل نسقي (systematic solution) لمشكلة الشر، متحرراً الحجة الموضوعية التي لا يتمارى فيها المسلم وغير المسلم ، مقتصرًا في الاستدلال بنصوص الوحي على تلك التي تحوي حجة عقلية أو لبيان مذهبه التصوري في القضايا الوجودية، وقد أسس مبدأ النظر في البحث على مجموع أصول تصورية تشمل تعريف عدل الله بأنه "وضع الشيء في محله اللائق به"، وتعريف الظلم بأنه "وضع الشيء في غير موضعه"، وعدم جواز قياس الله سبحانه بعباده؛ ولذا فالعدل الإلهي أعلى وأدق من العدل بالمعنى البشري، والاعتقاد بأن أفعال الله معللة، وكمال علم الله بالكليات والجزئيات، وأخيراً الإرادة الحرة للإنسان، أما عن مراجع النظر فقد اعتمد على كتاب "شفاء العليل" لابن القيم، ورسالة دكتوراه عن أقوال ابن تيمية المتعلقة بمشكلة الشر للمستشرق "جون هوفر" بعنوان: *Ibn Taymiyya's Theodicy (of Perpetual Optimism)*، ومن المعاصرين عباس العقاد وسعيد النورسي في رسائله، وقد أكثر النقل عن الفلاسفة والمفكرين الغربيين لقدم الشبهة ولكثرة الردود العقلية المتينة التي حوكتها مؤلفاتهم ولموافقتها وتوضيحها لكثير من المعاني التي أتى بها الوحي، وفيما يتعلق بمحدود الدراسة فقد نبّه المؤلف أنه لا يمكن لمشكلة الشر أن تطرح للنقاش الجدي خارج الدائرة الكبرى لدلائل وجود الله المتنوعة كدليل حدوث العالم ودليل التصميم... إلخ، واقتصر في الدراسة على الاشتباك مع الجانب العقلي والفلسفي - دون العاطفي - المؤسس للشبهة الإلحادية، وقد دل عدم قيام الرد على شبهة الشر على إسقاطات دينية مسبقة على توافقه في منهج النظر مع "ويليام ب. ألتون" رئيس الجمعية الفلسفية الأمريكية، في مساهمته في معالجة مشكلة الشر التي اطلع عليها في آخر مراحل إعداد مسودة الكتاب، حيث وجده يتفق معه في الأسس التي بنى عليها معالجته مثل (مسألة القصور الإدراكي، ووجود عدد كبير من الأجوبة المختلفة ذات الطبيعة التعاضدية لتفسير إيجابي لوجود الشر الذي يبدو مجانياً) مما يثبت أن في الكون دليلاً على هذه الوجهة رغم اختلاف الانتماء الديني.

في الطريق إلى الجواب

1 The inductive argument from evil and the human cognitive condition, William P. Alston

في الفصل الثاني المعنون بـ "الطريق الخاطئ إلى الجواب" يستعرض المؤلف أجوبة المؤهلين وغيرهم المعيبة بالخلل، كالقول بأنه لا وجود للشر إنما هو مجرد وهم (illusion) في مخالفة للحس والبداهة، وهو قول لبعض المتصوفة وينسب إلى الهندوسية، والمقابل له مذهب البوذية الذي يقرر أنّ الوجود شر محض والخير وهم، أو أنّ الشر سر محض يستحيل إدراكه؛ لأنّه يتجاوز قدرة الوعي البشري لجهلنا المطبق بأعراض الخلق الإلهي، وقد رد المؤلف على ذلك بأنّ القرآن أكد وجود الشر فضلاً على أنّ هذا المذهب سيؤول بنا إلى اللاأدرية، أو القول بالكون الشفاف الذي نعرف فيه الحكيم التامة من كل فعل، وهذا متعذر لطبيعة التعقيد البالغة للحقيقة الكونية فضلاً عن عدم الكمال البشري، أو تجاهل كون مشكلة الشر هي مشكلة شرور متنوعة ولها تقسيمات مختلفة كالشر الطبيعي والأخلاقي والميتافيزيقي، أو التسليم بمطلب الملاحظة بجواب يحوي حكمة واحدة كلية أرضية تستوعب مآلات كل الشرور، وهذا يتنافى مع تعدد أوجه الشر؛ فالأجوبة بمنة حرية الإرادة وتحقيق أو تنمية الذات أو الوجه الإسخاتولوجي هي أجوبة متكاملة لا متعارضة، كذلك طلب جواب قاطع لكل إشكال على حدة يعتبر نوعاً من المشاغبة؛ إذ إنّ المطلوب في جواب مشكلة الشر هو كلية الجواب وقدرته على دفع دلالة الشبهة على نفي وجود الخالق دون الإلزام بتقديم جواب تفصيلي، فالتفسير التفصيلي يتغافل عن كون الشر الذي يقع في حادثة معينة الحكمة من ورائه تكون معقولة فقط إذا نظرنا إلى نوع هذا الشر كجنس لا كعين معينة، كالفرق بين تلمس الحكمة من حتمية الموت في الجنس البشري وموت فرد معين قريب منا، ومن الأجوبة المعيبة نفي الكمال عن الله في صفتي العلم والقدرة، كجواب الحبر اليهودي "هارولد س. كوشنر"، وهذه الطريقة التي ترى محدودية السلطان الإلهي تنسب إلى مدرسة (process theism)، الخطأ في تعريف عدل الله، بحيث يقتضي استحالة وقوع مظالم للبشر على الأرض من المسالك المعيبة أيضاً؛ وإنما يأتي الجواب على الملحد المنكر لوجود حكمة من وجود الشر ببيان مسالك الحكمة والتعليل لأفعال الله، والتسليم للملحد بأنّ العالم الذي نحيا فيه هو أفضل العوالم بلا اعتبار لغائته وللمقصد من وجوده على هذه الحالة التي تحوي البلاء والمكابدة والألم، بحيث تكون تلك الصورة مطعناً في قدرة الله عز وجل على خلق عالم أفضل لا يحوي الشر والقصور، وقد أجاب المؤلف على ذلك بأنّ مقولة "أفضل العوالم" لها اعتبارات عدة عند اللاهوتيين المدافعين عنها - رغم مخالفتهم لهم في النظرة الإجمالية -؛ فهم يقررون أنّ عالمنا هو الأفضل في حصيلته النهائية لا في أفراده، وأنّ هذه الأفضلية لا تتحقق إلا بالنظر إلى تناسقه ومعرفة أهمية وجود الإرادة الإنسانية الحرة، وأنّ الله سبحانه قد خلق بالفعل هذا العالم الذي يرحوه الملحد وهو الجنة، ولكنها دار جزاء وليست محلّاً لقبول غاية الخلق المتمثلة في اختبار العباد.

الشر كإشكالية وجودية وقلق نفسي

على خلفية عصر التنوير نُحت وجه الحياة في الغرب بـعدمية "نيتشه" ولا معنى "سارتر" وجرية "كامو"، وآل الأمر إلى تآكل الغاية من الحياة، ودفعت المادية القارب في الاتجاه نفسه؛ فلا إله، ولا معنى متجاوز للحياة، وبهذا أضحي الشر والألم والمعاناة مظهرًا من مظاهر عبثية الوجود، وبخلاف أمم وحضارات كثيرة وجدت في مصالوة الشر والارتقاء فوقه وتحقيق الفضائل والأجناد هدفًا للحياة ولّد التوجه الغربي نحو الرفاهية والترف وتحقيق السعادة ومنع المكابدة كهدف أعلى ارتفاع الحساسية بدرجة عالية تجاه مشكلة الشر، ومع التحديث المستمر وتولد الفردانية وتوحش الأنا تفككت البنى الاجتماعية، وغدت الذات هي الراغبة والمرغوبة لا تفكر في الآخر ولا تعبأ به، وبذلك فقد الشر قيمته كمبرر لإظهار تلاحم الجماعة وبروز معاني الأخوة والتكافل والرحمة، وانتهت العقلانية كتمم لهذا التركيب إلى استبدال النظام الإلهي بمركزية الإنسان وإشعاره بالقدرة على إسناد النظام الكوني، الذي تسعى إلى صياغته بحيث لا يحتوي على الألم!

خلفيات عن مشكلة الشر

١- التوراة أصل اعتراض الفلاسفة الغربيين على التصور الألوهي:

يقول "بول تاييس"^١: "إنَّ إله التوراة لم ينشر الفرح والحبور أينما حل؛ وإنما نشر الخوف والقتل، وأنَّ أي شخص في عالمنا، يرتكب الأعمال التي ارتكبتها يهوه، لا بدَّ أن يسجن أو يعدم". ويقول "ريتشارد داوكتز" في كتابه "وهم الإله": "يمكن القول إنَّ إله العهد القديم هو أكثر شخصية بغیضة في كل القصص: غيور وفخور بذلك، تافه، جائر، غير متسامح، انتقامي، متعطش للدم، ومولع بالتطهير، كاره للنساء، عنصري، قاتل للأطفال، مغرم بالإبادة الجماعية، قاتل لأبنائه، وبائي، مصاب بجنون العظمة، سادي، فتي، صاحب نزوات حاقدة".

٢- مذهب اللذیة:

1 Jumpin' Jehovah: Exposing the Atrocities of the Old Testament God – July 25, 2007
_by Paul Tice

يقول الفيلسوف اليهودي "جون هك"¹: "يعتقد الكتاب المعادون للإيمان بالله دائماً، أن غاية الإله المحب لا بد أن تكون في خلق جنة اللذة "HEDONISTIC PARADISE"، وبما أن العالم هو غير ذلك؛ فإن ذلك يثبت بالنسبة إليهم أن الله ليس محباً على الدرجة المطلوبة، أو أنه ليس قوياً بالدرجة الكافية ليخلق مثل هذا العالم". الحياة الإنسانية في ضوء مذهب اللذة، قطعة زمنية منقطعة عن الوجود الكوني، وإدراك فردي منقطع عن الوجود البشري، فالقول إن الشر في حس معتنق هذا المذهب لا يلتقي مع الإيمان بإله كامل، متناسق في مقدمته ونتيجته، ويقود أوله إلى آخره.

٣- سؤال الإنسان الحساس:

يرجع المؤلف تزامن سؤال الشر مع شيوع الكوارث المهلكة، حيث ظهر بصورة جديدة حامية بعد الحرب العالمية الأولى والثانية؛ ففزعت الأنفس الرقيقة الهشة واهتزت بعنف من جراء ذلك، وهو ما يدفع إلى تغليب اعتبار مشكلة الشر تعبيراً عن ارتجاج نفسي أكثر منه نظراً عقلياً محضاً، تقول الفيلسوفة "ليندا زجازيسكي" المحاضرة في الأديان في جامعة جامعة أو كلاهوما: "يستنكر الكثير من الملاحدة وجود كثير من الشر المزعج والمفزع في هذا العالم، لا وجود الشر ذاته، دون محاولة الغوص في الحكمة من وراء ذلك"²، كما تسبب قصر الناس على الفكر الإلحادي ذاته إلى ارتفاع الحساسية بدرجة كبيرة تجاه مشكلة الشر لعدم وجود منظومة عقديّة إيمانية يتلمس فيه المرء السلوان ويستشعر الحكمة ويطمئن إلى عدالة السماء، كما حدث في "الإمبراطورية السوفياتية" وغيرها من الدول التي شاعت فيها المادية والرؤية الإلحادية.

الشر وفساد المقدمات

1 John Hick's Soul-Making Theodicy

2 Joshua Seachris & Linda Zagzebski, " Weighing evils: the C. S. Lewis approach", in International Journal for Philosophy of Religion

بين الإله المؤنسن ومركزية الإنسان:

إنَّ الإله في التصور الإلحادي لا يملك مشيئة خلق عالم أدنى من الكمال، يخلق خلقاً بلا تكليف ولا غاية، ويهيئ له الكون بحيث يحقق له أقصى سعادة ولذة ممكنة. إله مؤنسن شديد الذكاء لا يتجاوز في أفعاله إجماع العقول البشرية، يقدم عريضة عن مبررات أفعاله وجاهز للجواب عن الأسئلة الوجودية من خلقه، يستفتي الخلق قبل خلقهم عن إرادتهم في الوجود، ويلبي رغباتهم بما يحقق الرفاه، إله فاقد للحرية وللذاتية بمعناهم البشري، مجرد صندوق يضع فيه كل مخلوق قائمة رغباته. إنَّ هذا التصور بالفعل لا يتيح مساحة لوجود الشر في الحياة، لكنه تصور إلزامي عاطفي لا يقوم على تحقيق ضرورة عقلية؛ لأنَّه يلغي إرادة الله سبحانه من جهة - إن لم يبلغ ذاته على الحقيقة -، ويلغي الغاية من الخلق وهو التكليف والاختبار من جهة أخرى. إنَّ هذا التصور بأكمله قائم على تمركز الإنسان في قلب الوجود لا على مركزية الله التي من آثارها ألا تكون رغائب الإنسان وحاجاته هي الحكم على الأشياء بالحسن والقبح، وتجعل العقل يقر بأنَّ مدركاته من الكون أدنى من حقائقه التي يعلمها الله، وتنهاه عن مماثلة الحكمة والعدل الإلهي بالحكمة والعدل في التصور البشري، فعُدل الله لا يتعلق كما في الحس الإنساني بالنفع والضرر، وإنما بوضع كل شيء في موضعه، وكماله يقتضي أنَّ له أبعاداً ليست ضمن أبعاد العدل بمعناه البشري.

حين يكون الاستشكال الفرعي نفيًا لليقين الكلي:

الطرح الإلحادي يقوم أساساً على شبهة الشر التي تمثل الإشكال الفرعي/الظني، فهو لا يستطيع بناء رؤية وجودية متسقة وكاملة للعالم؛ لأنَّه ينطلق من الجهول لإقامة المعلوم، من فكرة بسيطة مختزلة إلى استدلال سريع خفيف يقفز إلى الزعم أنَّ هذا الكون بلا إله، بخلاف المنطق الإيماني الذي ينطلق من المعلوم والكلي المدرك ليقيم منظومته الكبرى، مستعيناً بالنظر العقلي ومدد الوحي، فهو يدرك الحكمة في عامة ما يرى؛ ولذلك ينطلق من هذا المعلوم لتأسيس كلياته الكبرى التي ستهيمن على تفسير الجهول الذي لا يدركه حيناً أو أبداً.

التفكير المعكوس:

إنَّ التفكير الإلحادي ينطلق من سؤال الحكمة من وجود الشر، وهو بحث في المغيبات التي لا سبيل إليها أصلاً إلا بوحى - يؤول إلى الإبحار إلى عالم اللاهائيات حيث تنشطر الأسئلة وتتولد من دون أجوبة مدركة - ليقيم حكماً على الإله من حيث الوجود والعدم وقيم تصوراً للغاية من الخلق، وهنا بالتحديد يكمن التفكير المعكوس؛ فبدلاً من السعي إلى الحقائق الكبرى، والنظر في الكون المادي وقوانينه، والرضا بالأجوبة الكلية التي يقدمها مثل دلائل الخلق والإبداع التي تؤول إلى وجود خالق كبدائية مركزية ثم ينتقل إلى الوحي استرشاداً، لجأ إلى منطق منكوس لتوليد الأفكار وتجلية الحقائق!

مشكلة الشر، وصفات الرب لا وجوده:

إنَّ مشكلة الشر على الحقيقة ليس لها تعلق بوجود الذات الإلهية من عدمها، يقول "أنتوني فلو"¹، أيقونة الإلحاد بعد تراجعها عن إلحاده: "من المؤكد أنه لا بدّ من مواجهة وجود الشر والألم، ولكن فلسفياً يعتبر هذا الموضوع منفصلاً عن السؤال عن وجود الله، فمن وجود الطبيعة نفسها نحن نصل إلى أصل إيجادها، ربما للطبيعة عيوب، ولكن ذلك لا يدل البتة إن كان لها مصدر نهائي أم لا؛ وبالتالي فوجود الله لا يرتبط بوجود الشر السائب أو غير السائب". إنما تتعلق مشكلة الشر بصفات هذا الخالق، يقول الفيلسوف الملحد "ج.ماكي"² إنَّ مشكلة وجود الشر هي "مشكلة فقط لمن يؤمن أن هناك إلهاً قديراً كامل الخيرية، وهي مشكلة منطقية تتمثل في توضيح عدد من الاعتقادات والتوفيق بينها... إذا كنت مستعداً للقول: إنَّ الله غير كامل الخيرية، وليس تام القدرة... فعندها لن تواجهك مشكلة الشر".

حصر صفات الله في ثلاث:

تقوم شبهة الشر على أن وجود الشر يتعارض مع وجود الإله ذي الصفات الثلاث؛ القدرة، والعلم، والرحمة حصراً، متجاهلاً النظرة الكلية التي لا تهمل من صفات الرب شيئاً، التي تتوصل بأفقها الواسع إلى إدراك التآلف الوجودي بين وجود الله الكامل ووجود الشر؛ فالله هو المالك المتصرف القاهر الذي بمنطق معاييرنا الأرضية له حقوق أوسع بكثير من حقوق المملوك، فهو يرزق الخلق بالصحة أو المال أو الذرية وقد يمنع عنهم، يأمر الخلق وينهاهم ويبتليهم ويختبرهم بالمرض أو الموت أو الفقر أو الألم، ويعاقبهم على العصيان بما يحقق الغاية التكليفية من وجودهم.

1 There Is a God : by Antony Flew

2 EVIL AND OMNIPOTENCE. By J. L. Mackie

السؤال التأسيسي: ماذا عن مشكلة وجود الخير؟

إنَّ طرح التساؤل حول مشكلة الشر يحوي دلالة على حس أخلاقي يناقض الهدف الذي تطرح من أجله الشبهة، وهو نفي وجود الإله وتصوير الكون على أنه مادة، فعقل الإنسان الذي يسأل هو نفحة غير مادية، وهو يرى أنَّ للحياة قيمةً ومعنى، ويرى أنَّ الشر يمثل نشازاً في عالم الأصل فيه الخير، وهنا يعود السؤال على الملحد: ماذا عن مشكلة وجود الخير؟

الخير هو قانون الكون؛ إذ إننا نملك القدرة على تعداد أوجه الشر لأنَّه محصور العدد، لكننا لا نملك في المقابل أن نعد الخير الذي يعم العالم ويهيمن على وجوده في الإنسان والحيوان والنبات والنهر والبحر، فالخير هو القانون العام الذي إذا استقام فهمه يستطيع الذهن أن ينتقل إلى فهم الشذوذات، والعلم الطبيعي نفسه قائم على فهم الشرور المادية على أنها في الأعم الأغلب نشوز عن أصل عمل الكون، فالأمراض - على سبيل المثال - هي الخروج عن أصل العافية، والتسليم بخيرية العالم كأصل يناقض دعوى الإلحاد؛ لأنَّ مادة وطاقة تسبحان في عالم من الفوضى لا يمكن أن ينشئ عبثهما وجوداً الأصل فيه الخير وفقاً للقانون الثاني للديناميكا الحرارية الذي يقرر أنَّ الأنظمة تتجه دوماً إلى الفساد لا النظام والغائية إلا بتدخل عوامل خارجية ذات طابع ذكي، والتسليم بنشوز الشر وأصالة الخير يدل على الإله، يقول "دايفيد بيك": "لو كان الإلحاد حقاً، لما كان علينا أن نتوقع أن يكون الخير هو الرئيس أو الأكثر أصالة من الشر، في الحقيقة كنا سنتوقع ألا يكون هناك قسما الخير والشر أصلاً"، ويعجز التفسير المادي الطبيعي عن الجواب عن مشكلة الخير؛ فهو قادر في عالم المادة على استخدام دعاوى التفوق العرقي والبقاء للأقوى كنموذج تحليلي لمظاهر الأنانية والظلم والفساد في الأرض، لكنه لا يستطيع أن يفهم معاني التضحية والإيثار والرحمة إذ لا وجود لها في عالم المادة وقوانينها، وإنما هي من مصدر متجاوز "مصدر إلهي".

مشكلة الشر حجة على وجود الله

أولاً: دليل المعيار:

لا يمكن للملحد أن يستدل بالشر الموجود في العالم لنفي وجود الله حتى يقر بوجود الخير والشر، ولا سبيل للإقرار بقيمته الخير والشر حتى يقر الملحد بوجود المعيار الموضوعي، ووجود المعيار الموضوعي الأخلاقي غير ممكن دون

1 God and Evil: The Case for God in a World Filled with Pain – January 21, 2013 ,by
Chad Meister (Editor), James K. Dew Jr. (Editor)

وجود مشرع أخلاقي غير مادي، وهذا المشرع هو الله الذي تسعى الحجة الأخلاقية المعتمدة على الشر لنفيه! فلا سبيل لاعتماد حجة الشر لإثبات الإلحاد حتى ينقض الإلحاد بإثبات وجود الله، فغاية الملحد ووسيلته تتنافيان (MUTUALLY EXCLUSIVE)! يقول الفيلسوف "ويليام لين كريج"^١: "رغم أن المعاناة تشكك على المستوى السطحي في وجود الله، إلا أنها على مستوى أعمق تثبت وجود الله؛ إذ إنَّه في غياب الله لا تمثل المعاناة شيئاً قبيحاً، إذا آمن الملحد أن المعاناة شيء سيئ أو أنها أمر يجب ألا يكون، فهو بذلك يقدم أحكاماً أخلاقية لا يمكن أن توجد إلا إذا وجد الله".

ثانياً: الشر حجة على مخلوقية الكون:

يقول "أبو منصور الماتريدي": "ليس في الكون ما يدل على أنَّه، ككل أو بأجزائه، واجب الوجود، أي ما يلزم من عدمه محال عقلي، ومن دلائل حقيقة أنَّه ليس كذلك وجود الشر فيه كتنقص معبر عن قصوره، وفي تعبير الكون عن قصوره دلالة على حاجته إلى واجب الوجود الذي يرجح وجوده على عدمه، وهو الله سبحانه؛ فالشر بذلك دليل من الأدلة على وجود الله، إذ لا يستقيم فهمنا لأصل الوجود دون واجب للوجود في كون ممكن الوجود".

ثالثاً: الشر دليل نقيضه:

يقول الفيلسوف "س.أس. لويس"^٢: "حجتي ضد الإيمان بالله كانت أن الكون يبدو شديد الوحشية والظلم، ولكن كيف اكتسبت أنا فكرة العدالة والظلم؟ إنَّ الإنسان لا يقول عن خط: إنَّه معوج إلا إن كان له شيء من المعرفة بالخط المستقيم، بما كنت أقارن هذا العالم عندما قلت إنَّه غير عادل؟ ... بالطبع كان بإمكانني التخلي عن فكرة العدل، بالقول: إنها لا تعدو أن تكون من محض رأيي الشخصي، ولكن لو قلت ذلك فسينهار اعتراضي أيضاً على وجود الله...؛ لأنَّ الحجة قائمة على القول: إنَّ العالم غير عادل على الحقيقة، لا أنَّه لا يرضي أهوائي الخاصة". إنَّ التسليم بوجود الشر، يلزم منه التسليم بوجود الخير الذي هو حجة على وجود الله!

رابعاً: الأمل.. الإبداع والحكمة التي لا تضاهي:

1 Hard Questions, Real Answers – October 17, 2003 ,by William Lane Craig

2 Mere Christianity– Deckle Edge, April 21, 2015 by C. S. Lewis

هل الألم شر؟ إنَّ الألم حجة للمؤمنين لا عليهم، فكيفية عمل الجهاز العصبي مذهلة في ذاتها، ودالة على وجود خالق، فضلاً عن أنَّ الألم المؤذي هو الذي يحمي الجسم بتنبهه إلى الأخطار التي تحيط به، يقول الدكتور العالمي المتخصص في علاج مرض البرص "بول براند"^١: "لقد قبلت بيسر أنَّ سنوات عملي بين المفتقدين للشعور بالألم أعطتني رؤية منحرفة. وأنا الآن أنظر إلى الألم كواحد من أعظم الميزات الرائعة لتصميم الجسم البشري، وإذا أمكنني أن أختار هدية لمرضى البرص عندي فستكون هدية الألم. في الحقيقة لقد أشرفت على فريق علمي أنفق مليون دولار لمحاولة تصميم منظومة صناعية للألم. أهملنا المشروع عندما أصبح من الواضح جداً أن ليس بإمكاننا أن ننشئ منظومة هندسية معقدة تحمي الإنسان"، وفي المقابل فإنَّ جسم الإنسان حوى ما يجعله يقاوم الآلام العارضة له؛ كالأندروفين وهو من الكيمياءات الناقلة للإشارات بين الأعصاب، وهو مسؤول عن حبس الألم وإحساسنا بالمتعة^٢؛ بل إنَّ للدماغ قدرة عالية على إسكات صوت الألم الصارخ عند الحاجة، فإنَّ الجهاز العصبي الطرفي Peripheral nervous "system" قد يرسل رسالة الألم إلى النخاع الشوكي الذي يوجهها إلى الدماغ لتفسيرها كألم مزعج، لكن الدماغ يقوم بتحريف الرسالة حتى لا تتحول إلى مفهوم ألمي، وهو ما يظهر في أرض المعركة أو عند أهل الرياضيات الروحية^٣. إنَّ التفسير المادي لا يفترض ضرورة وجود جهاز عصبي للجسم بالغ التعقيد يستشعر الألم، وآلية الاصطفاء الطبيعي العاملة في الطفرات العشوائية لا تضيف معلومات جديدة للبدن؛ وإنما هي تنتخب من الموجود بالفعل^٤، فلا يبقى إذن إلا فاعل حكيم قدير!

الفرضية الإلحادية والتصور الألوهي

1 The Gift of Pain,Why We Hurt and What We Can Do About It ,By Paul Brand , Philip Yancey ,197

٢ فيليب يانسي، أين الله في وقت الألم ، ص٤٣

3 The Gift of Pain,Why We Hurt and What We Can Do About It ,By Paul Brand , Philip Yancey,p251

4 Not by Chance! Shattering the Modern Theory of Evolution by Lee M. Spetner (Author), Lee M. Spetner P.h.d. (Author)

إنَّ الفرضية الإلحادية ليست فرضية متناسقة داخلية؛ فعدم وجود إله يعني عدم وجود قوانين منتظمة في الكون، إنما هو العبث الذي لا وجود للخير ولا للشر فيه، حيث نُحيا في كون لا يحمل معياراً قيمياً، وهذا يعارض المشاهد والمحسوس من وجود قوانين منتظمة، ووجود الخير والشر، ويعارض وجود دلائل مختلفة على وجود الله، أما التصور الألوهي فيتنبأ بأمرين؛ الأول: خلقنا الله لسبب وحكمة، وله الحق في أن يسمح للشر أن يوجد لأجل تحقيق السبب والحكمة، سواء بلغت عقولنا هذا السبب وهذه الحكمة أم لم تبلغ ذلك. الثاني: عظمة الله وقدرته وعلمه وحكمته البالغة في مقابل محدودية مداركنا العقلية، حجة لأن نتنبأ بأن معارفنا أقصر من أن تحيط بكل دواعي وجود الشر، وإن كان واقعه عكس ذلك. إنَّ التصور الألوهي يحقق نبوءاته بجدارة ويثبت تناسقه الداخلي؛ لأنَّ النظر العقلي - مستقلاً أو استرشاداً بالوحي - يتيح لنا أن نربط الكثير من شرور الكون بحكم شتى ومصالح متنوعة.

بعض الحكم العامة من وجود الشر وفق التصور الإيماني

ظهور حكمة الله تعالى:

يقول ابن القيم: "الحكمة إنما تتم بخلق المتضادات والمتقابلات كالليل والنهار والعلو والسفل والطيب والخبيث والخفيف والثقيل والحلو والمر والبرد والألم واللذة والحياة والموت والداء والدواء، فخلق هذه المتقابلات هو محل ظهور الحكمة الباهرة ومحل ظهور القدرة القاهرة والمشية النافذة والملك الكامل التام، فتوهم تعطيل خلق هذه المتضادات تعطيل لمقتضيات تلك الصفات وأحكامها وآثارها وذلك عين الحال؛ فإنَّ لكل صفة من الصفات العليا حكماً ومقتضيات وأثراً هو مظهر كمالها وإن كانت كاملة في نفسها لكن ظهور آثارها وأحكامها من كمالها، فلا يجوز تعطيله؛ فإنَّ صفة القادر تستدعي مقدوراً، وصفة الخالق تستدعي مخلوقاً، وصفة الوهاب الرازق المعطي المانع الضار النافع المقدم المؤخر المعز المذل العفو الرؤوف تستدعي آثارها وأحكامها... فلو عطلت تلك الصفات عن المخلوق المرزوق المغفور له المرحوم المعفو عنه؛ لم يظهر كمالها وكانت معطلة عن مقتضياتها وموجباتها، فلو كان الخلق كلهم مطيعين عابدين حامدين لتعطل أثر كثير من الصفات العلى والأسماء والأسماء الحسنى، وكيف كان يظهر أثر صفة العفو والمغفرة والصفح والتجاوز والانتقام والعز والقهر والعدل والحكمة التي تنزل الأشياء منازلها وتضعها مواضعها،

فلو كان الخلق كلهم أمة واحدة لفاتت الحكم والآيات والعبير والغايات المحمودة في خلقهم على هذا الوجه وفات كمال الملك والتصرف".^١

الشر وقود الخير ومبرر الإحساس به:

إنَّ الشر هو الذي ينفث في الخير روح الوجود وريح النسيم، إنَّه وقود حركته وسبيل استوائه، إنَّ نقص العالم هو الذي يستحث وجودنا إلى السعي إلى الكمال، وإنَّ أثقال الشر هي التي تحرَّكنا إلى ارتقاء معارج الخير، يقول "إيونج" أستاذ الأخلاق في جامعة كامبرديج: "وإنها حقيقة واقعة أنَّ ثمَّة خيرات... لا تأتي بخير محصول الشر، فكيف تتسني الفضيلة مثلاً بغير المغريات والعوائق ومن ثمَّ بغير الشر ولو في صورة الألم والعرقلة؟ وكيف توجد شجاعة بغير ألم أو مشقة أو خطر؟ وكيف يوجد الحب في أرفع حالاته التي نعرفها ما لم يكن هنالك داعية للعطف والإشفاق والتضحية... لا بدَّ من شر نغلبه كي نحصل على فضيلة الغلبة عليه"^٢. ويقول الفيلسوف الأسكتلندي "نينيان سمارت": "مفهوم الأمر الحسن في تعلقه بالإنسان مرتبط بمفاهيم أخرى مثل الفتنة والشجاعة والكرم... إلخ، ليس لهذه المفاهيم مجال للوجود إذا خلق الإنسان كاملاً بلا نقص"^٣.

استشعار النعمة واللذة:

"قال أهل العقول والخبرة: إنما تعرف الأشياء بأضدادها، فلولا تجربة الحاجة لما كان في الكسب لذة، ولولا تجربة العجز لما كان في القدرة لذة، ولولا العلة لكانت العافية بلا لذة، وقد أراد الله أن يجعل تجربة المعاناة وآلامها سبباً لمعرفة الخير ونعيمه؛ ليعرف العبد فضل الله عليه، وليتدقق بلسان التجربة عدوبة النعمة فلا يزهد في قدرها، ويدرك أنَّه يَفْضُلُ بقية الخلق بما حظي به من خير"^٤.

إفاقة الإنسان من غفلته:

١ ابن القيم، شفاء العليل، ص ٤٣٩-٤٤٠

2 The Fundamental Questions Of Philosophy – August 28, 2011, by AC Ewing

3 Ninian Smart, 'Omnipotence, Evil and Supermen', in Philosophy, APRIL, 1961, P188

٤ الجاحظ، الحيوان، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ، ١/١٣٤-١٣٥

إنَّ الطبيعة البشرية قد جبلت على الاستسلام للغفلة إذا ركبت متن الراحة واللذة، ولا يكاد يوقظ هذا الكائن الوسنان غير بوق الألم والحنة، يقول "سي.إس. لويس": "يهمس الله إلينا في مُتَعْنَا، ويتحدث في وعينا، لكنه يصرخ في أوجاعنا، إنَّ ذلك هو بوقه الذي ينبئه به عالمًا أصم"^١. فإذا أفاق الإنسان انتبه لحقيقة وجوده وتحركت فيه أطراف الهمة للعمل على إصلاح نفسه إذا كان في عقله رجاحة، ويعبر الفيلسوف الأمريكي "فان إنواجن" عن شيء من هذا المعنى في حاجة الإنسان إلى بلاء الدنيا ليعود إلى ربه حيث يقول: "إذا "ألغى" الله ببساطة كلَّ غوائل هذا العالم بسلسة لا تتناهى من الخوارق، فسيفسد ذلك خطته الذاتية لمصلحة الإنسان معه، إنَّه لو فعل ذلك فسنكون في حال رضى بقدرنا ولن نرى داعيًا للتعاون معه"^٢.

الشر لتكفير الخطايا:

قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما يُصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يُشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها" متفق عليه، وقال: "ما يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ" رواه أحمد، فقد قضى الله برحمته أن يطهر من أصاب السيئات في الدنيا بعقوبة معجلة حتى يأتي يوم القيامة وقد حطت عنه خطاياها.

عقاب الفاسدين:

إنَّ مجموع العدل الإلهي والعدل الأرضي وعز الألوهية، يقتضي أن يصيب الفاسدين في هذه الدار، بما جنت أيديهم، عذاب وأذى، جزاء وفاقًا، ولعل هذا الأمر متصل بصورة كبيرة بالكوارث الماحقة التي تحيق بالأمم، فتهلك الكثير منهم أو تبيدهم، يقول الله عز وجل: {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمْكِنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ} [سورة الأنعام: ٦]؛ بل على المستوى الفردي يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إنَّ الرجل يحرم الرزق بالذنب يصيبه" رواه ابن ماجه.

اختبار إيمان العبد:

1 The Complete C. S. Lewis Signature Classics – Deckle Edge, February 6, 2007 ,by C. S. Lewis (Author)

2 Peter van Inwagen, "The Problem of Evil", Oxford University Press, 2006, p.88.

إن حقيقة الامتحان تقتضي أن يعاني المرء وخز المكاره، وقيظ المفاوز؛ حتى يثبت أنه حقيق أن يكون من الفائزين، قال الله تعالى: {الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (3)} [سورة العنكبوت].

في نقض البناء المنطقي لمشكلة الشر

أولاً: في تحديد طبيعة الشر:

الشر هو "بمجرد نتاج أنطولوجي عرضي لخلق كائنات محدودة"، فوجوده تابع لوجود كون غير متصف بالكمال، وليس هو أصل لذاته؛ إنما هو حال وصفي أو عبارة "كورنيليوس بلنتجا"^٢ "غير ما يجب أن يكون عليه الشيء"، ولا يمكن تصور وجود عالم شر من كل وجه، لا يخالطه خير في مبناه أو مآله، يقول "جون تاكهاوس"^٣: "لا يمكنني تصور ذلك، ولم أشهد أي وصف لذلك العالم في العالم أو الفلسفة أو الأدب"، والحجة في ذلك هي أن الشر واقعياً ليس إلا عارض فساد في شيء من أشياء الوجود، كالجرح في اليد، والصدأ في الحديد، وهذا هو عين ما انتهى إليه عامة الثيوديسييين المسلمين، وقد سبقهم إلى ذلك طائفة من الإلهيين، وعلى رأسهم أوغسطين؛ لذا فدعوى أن الشر يمثل "شيئاً ما في ذاته" ليست إلا نوعاً من أنواع المغالطات المنطقية، أي مغالطة التشبيء أو التجسيم، وقد تناولت الفيلسوفة "جين ماري ترو"^٤ تقويم حقيقة الشر من زاوية غلبت قيمته الجوهرية على قيمته الذرائعية، فإذا غلب جوهره على ما يصلح أن يكون له ذريعة كان هذا الأمر شراً لا يليق وجوده بكمال الحكمة الإلهية، وإذا غلبت القيمة الذرائعية القيمة الجوهرية كان الشيء من أفعال الحكمة التي لا تتعارض مع علم الله وقدرته ورحمته.

ثانياً: في نسبة الشر لله:

لا تصح نسبة الشر إلى الله سبحانه وإنما هي صفة من صفات مخلوقاته، فالله سبحانه خلق إمكانية وجود الشر لا الشر ذاته؛ فـ "الإرادة الحرة" التي وهبها الله للإنسان هي سبب وجود الشر، وهنا يظهر الفارق بين فعل الله المباشر وفعل

1 Adam Swenson, Privation theories of pain

2 Not the Way It's Supposed to Be A Breviary of Sin ,Cornelius Plantinga Jr.

3 Can God Be Trusted? Faith and the Challenge of Evil ,John G. Stackhouse, Jr.

4 The positive value of evil (Philosophy of Religion) 1988, by Jane Mary Trau

المخلوق، يقول "هربرت س. بوكس"^١: "إن الشر الأخلاقي مسموح به من الله، لكنه لم يأمر به، إن الله لا يسمح لأي شيء بالوجود إلا إذا كان سيجعل عاقبته حسنة، حتى الشر الأخلاقي جعل مسخرًا لأغراضه الحسنة". ويقول ابن تيمية^٢: "الكذب والظلم ونحو ذلك من القبائح يتصف بها من كانت فعلًا له، كما يفعلها العبد، وتقوم به، ولا يتصف بها من كانت مخلوقة له - أي لله - إذا كان قد جعلها صفة لغيره". وقد يخلق الله خلقًا غير عاقل يفعل الشر بحيث يكون وجهًا له وليس فعلًا لله؛ كالزلازل والبراكين، ولا تكون شرًا محضًا في نفسها بل في ظروف معينة ومن وجه معين، فليست دائمًا تحدث في أماكن بها بشر بحيث تلحق الضرر بهم، وهي في جملتها تفوق منافعها أضرارها كإخراجها الثروات المعدنية وهيئة الأرض ليستفيد منها الإنسان.

ثالثًا: في تفنيد حجة الاستدلال:

حتى يصح أي استدلال منطقي لإثبات تعارض وجود الله ووجود الشر لا يكفي أن تكون المقدمات المنطقية ممكنة أو صحيحة؛ بل لا بد أن تكون ضرورية، أي إنه **يمنتع على العقل افتراض صحة غيرها**؛ إذ يترتب على ذلك تناقض عقلي، وهو ما أقر به "ويليام رو" بقوله: "حتى يعمل هذا الإجراء، لا يكفي أن يكون ما نضيفه من تقرير صحيحًا، وإنما يجب أن يكون صحيحًا ضرورة... رغم أنه بإمكاننا أن ننجح في استنباط تناقضات ظاهرة للتقريرات، إذا كانت التقريرات المعتمدة لاستنباط التناقض الصريح صحيحة، دون أن تكون صحيحة ضرورة، إلا أننا لن ننجح بذلك في إظهار أن التقريرين الأصليين متعارضان منطقيًا"^٣؛ لذا على الرغم من تطوير الفيلسوف الأسترالي الملحد "ج.ماكي"^٤ لبنية مشكلة الشر على النحو التالي: "١- لا يستقيم منطقيًا أن يسمح الإله الكامل في علمه وقدرته وخبريته للشر أن يوجد، ٢- الشر موجود، ٣- الكائن الخير يتخلص دائمًا من الشر ما أمكنه ذلك، ٤- لا حدود لما يملك الكائن مطلق القدرة أن يفعله؛ ٥- إذن الله غير موجود" كان يكفي أن نثبت بطلان الاستحالة المنطقية لوجود الشر في عالم خلقه إله خبير كما يقول الفيلسوف "ستيفن دافز"^٥: "يكفي للمؤمن بالله لينقض دعوى التناقض المنطقي بين وجود الله ووجود الشر أن يشير إلى إمكانية أن تكون لله حجة أخلاقية جيدة للسماح بوجود الشر" والحجة الأخلاقية قد

1 THE PROBLEM OF EVIL- 1934 by Rev. Hubert S. Box (Author)

٢ ابن تيمية، مجموع الفتاوى ١٢٣/٥

3 Philosophy of Religion: An Introduction 4th Edition, by William L. Rowe (Author)

4 EVIL AND OMNIPOTENCE. By J. L. Mackie

5 Encountering Evil: Live Options in Theodicy ,by Stephen T. Davis

تتمثل في حرية الإرادة الإنسانية وفي إرادة الله اختبار البشر، أو أن يكون الشر سبباً في تنمية الذات وتطويرها بمصارعة أسباب السقوط.. وغيرها.

(أ) مشكلة الشر الأخلاقي

عن حرية الإرادة البشرية:

أورد "أنتوني فلو" اعتراضاً على انتصار الفيلسوف "بلنتنجا" لحرية الإرادة كرد على المشكلة المنطقية للشر قائلاً: "إنه بإمكان الإله أن يخلق عالماً يكون فيه الإنسان حرّاً دون أن يلزم من حرية الإرادة أن تقود إلى اختيار الشر ولو في بعض الأحيان"، وهنا قد أغفل "أنتوني فلو" أن الله قد وهب حرية الإرادة للبشر لاختبارهم فلا يمكن أن يسوقهم إلى الاختيار الصحيح في كل مرة؛ إذ تفقد الحرية معناها وينعدم الاختبار، بل ينعدم الخير الأخلاقي، أيضاً يقول "بلنتنجا" إن حقيقة أن مخلوقات حرّة تزل أحياناً لا تُحسب ضد وجود قدرة الله الكلية ولا ضد خيريته؛ لأنه ليس بالإمكان أن يمنع وقوع الشر الأخلاقي إلا بمنع إمكانية الخير الأخلاقي^٢. أما عن قدرة الله على إزالة الشر من الوجود مع إرادته اختبار البشر بإتاحة إمكانية فعل الشر فهو من الجمع بين النقيضين وهو محال وعلى هذا لا تتعلق قدرة الله عز وجل به.

كيف يمكن فهم خلق إبليس كمعين على الشر الأخلاقي؟:

أليس هو عنوان الشر المحض، وهو طريق الناس إلى جهنم ورائدهم إلى الكفر؟ والجواب عن هذا الإشكال من وجهين؛ الأول: أن الله لم يخلق الشيطان ليضل الناس، إنما خلقه للعبادة، غير أن إبليس قد اختار بنفسه الكفر والعصيان وإضلال بني البشر كما في القصة القرآنية. الثاني: أن هناك حكماً جليلاً يصعب استقصاؤها في وجود إبليس، ذكر طرفاً منها ابن القيم^٣ كتكميل مراتب العبودية بالمجاهدة والمخالفة، واللجوء لله والاستعانة به على دفع شروره ووسوسته، وكونه المثال الدائم للسقوط الذي يجب أن يحذر منه الإنسان، وهو أداة اختبارية للبشر، وخلق

1 Antony flew and A.C Macintyre (London: SCM Press, 1955)

2 The Nature of Necessity (Clarendon Library of Logic and Philosophy) Revised ed. Edition , by Alvin Plantinga (Author)

٣٢ شفاء العليل ص ٤٧٦-٤٦٩ بتصرف

الله له يظهر قدرة الله في خلق الأضداد؛ فكما خلق الملائكة فقد أوجده، وغيرها، وكما خلق الله إبليس فإنه أرسل الأنبياء وأنزل الشرائع وأبان عن الحق والعدل وخلق في الناس الفطرة السوية، وجعل لهم التمييز بالعقل، فكل ذلك من أكبر المعينات على فعل الخير الأخلاقي.

(ب) مشكلة الشر المادي

كيف يمكننا أن ندرك الحكَم من وراء "الشر الطبيعي"، الذي يعده الملاحظة أوضح المسالك لنفي وجود الله، كيف يمكن لنا أن نفهم تلك الآفات الطبيعية "كالزلازل والبراكين والتغيرات المناخية... إلخ"؟ إننا سنتوجه بالنظر إلى الطبيعة المادية التفصيلية لهذا الكون لنستشف الحكمة، مع علمنا بقصور مداركنا البشرية عن الإحاطة بجميع التفاصيل لهذا الكون، وجميع مرادات الله عز وجل فيه.

هل شرور الطبيعة دليل على عدم وجود إله؟:

لا ينكر عالم من كبار علماء الكونيات الحكمة الفائقة والمذهلة في ما يراه من مجموع الخلق، فالخلاف الناشب بين المؤمنين والملاحدة إنما هو في قراءة هذا التنظيم الغائي القائم على معادلات رياضية وفيزيائية شديدة التعقيد، أي دل على مبدع خارج هذا العالم أم هو أثر عن آلية سير العالم؟، ولما كانت الصدفة لا تنتج مثل هذه الدقة الغائية والتنظيم المتقن؛ فإن التسليم بوجود خالق لهذا الكون يعطي مقدرة تفسيرية أعلى، بحيث يمكننا القول إن ما يبدو من خلل في بعض أوجه الحياة إنما هو مقصود من مبدع الكائنات المعقدة، تقوم حجة الملاحدة على التصور التالي: "١- إذا كان هناك إله قدير فيجب أن يبلغ تصميمه للموجودات ذروة الكمال، ٢- من أجهزة الكائنات الحية والجمادات ما ليس على أحسن صورة، بل بعضها سبب لتلف الكائنات الحية، ٣- وعلى هذا التقرير إما أن الإله عاجز أن يحسن تصميم خلقه، أو أنه لم يخلق هذا الخلق، بما يبطل التصور الألوهي". وهي حجة باطلة من وجوه؛ إذ تفترض أن كمال الله يتعارض مع إرادته، وبذلك إرادته مقيدة بكماله، بما يلزم منه أن يكون خلقه للأعيان من المخلوقات في الذروة من الكمال، وتفترض أن "الحكمة الإلهية" تقتضي أن يكون كل مخلوق كامل الصنعة في ذاته، وهو إلزام بغير ملزم؛ إذ إن أبواب الحكمة أكبر من ذلك، فقد تكمن الحكمة في خلق الناقص وإعدام الجيد، وتؤول هذه الحجة في جملتها إلى "أن على الله أن يخلق لها مثله حتى يثبت الكمال" وهو محال! إن الإله الذي خلق "الخلية الحية" التي بلغ تعقيدها درجة

أشد من تعقيد مدينة نيويورك، كما قال "لينوس باولنج"¹ عالم الكيمياء الحائز على جائزة نوبل، هو الذي خلق في الإنسان القابلية للمرض، فهل ننكر التركيب البديع والمنظم والغائي لمجرد قابلية العطب في دنيا أراد الله من ورائها أمراً ولم يوجد لها عبثاً؟!

جريان السنن الطبيعية ضمن نسق رتيب:

إنّ ضمان انتظام الحياة البشرية لا يقع إلا بالسنن الكونية الرتيبة، وهي من معالم تسخير الكون للإنسان، حيث يقدر على معرفة القوانين الحاكمة التي تسري في مختلف الظواهر، ومن ثمّ يستطيع التحكم فيها بالتطوير أو بالإضافة، ومن غير ثبات هذه السنن لا يمكن "التسليم بمعقولية الكون قبل البدء بممارسة العلم، كحقيقة خارجة مستقلة وتتيح نفسها للفهم بالمقدار نفسه" كما قال عالم الفيزياء البريطاني "بول ديفيز"²؛ لذا لم يجعل الله جريان الأمور في هذا العالم ضمن سنن الخوارق، وعلى هذا فكما تجري هذه السنن بالخير تجري أيضاً بما يؤدي الإنسان، كذوبان الثلج وتحوّله إلى ماء - الذي هو أصل الحياة - فيغني الأرض والناس والدواب والنبات، وقد يهلكهم إذا حدث في صورة فيضان، على أنّ ثبات مثل هذه الظاهرة يمكن الإنسان من توقعها وفهمها ومحاولة تفادي عرضها الضار، والبحث نفسه في هذه السنن، وتطوير النظريات العلمية، والعمل على ترشيد الظواهر، من حكمة الله البالغة في تفعيل حياة الإنسان واستمرار حركيته ونموه وتطوره ومجاهدته؛ لذا لا نجد في قانون كوني شراً إلا ويقابله خير أعظم منه.

(ج) مشكلة الشر المجاني

سقطت شبهة الشر وتقهقرت من دليل "عدم منطقيّة وجود الشر" إلى "عدم منطقيّة الشر المجاني"، يقول "ويليام رو" لم ينجح أحد في تقديم تقرير يعلم أنّه صادق بالضرورة وأنّه إذا إضيف إلى "منظومة العقائد الألوهية التقليدية"، فيسمكننا من استخلاص نتائج متناقضة صراحة، في ضوء ذلك، من المعقول أن نستنتج أنّ الشكل المنطقي لمشكلة الشر ليس مشكلة ذات بال بالنسبة إلى مذهب الألوهية، إنّ طرحه المركزي، والمتمثل في أنّ منظومة عقائد الألوهية التقليدية متناقضة منطقيّاً هو طرح لم يتمكن أحد من إقامة حجة مقنعة عليه، ويقول "ويليام هاسكر": "القول: إنّ وجود الله لا يستقيم مع وجود الشر لم يعد بعد مستمسكاً بصورة كبيرة عند الملاحظة، جليّاً أنّ من الشر ما هو

1 In Defense of the Faith – July, 1996 ,by Dave Hunt "Eugene: harvest house publishers, 1996” ,p:22

٢ الجائزة الكونية الكبرى - لغز ملائمة الكون للحياة، تأليف: بول ديفيز، ترجمة: محمد فتحي خضر، مؤسسة هنداوي.

أساسي لوجود خير أكبر، وإن كان الأمر كذلك، فربما إذن كان السماح لهذا الشر بالوجود متسقاً مع صفة الخير الإلهي، الشرور التي لا تخدم مثل هذا الهدف الحسن، أي ما يعرف بالشرور المجانية، ما زال يعتقد بصورة واسعة أنها متعارضة مع مبدأ الألوهية وتوفر أساساً قوياً للحجة المعارضة للإيمان بـ"إله"؛ لذا سننتقل لمعالجة مشكلة الخير المجاني.

الشر المجاني أو الشر العبيثي كما في تعريف "ويليام رو"، الفيلسوف الملحد الذي حمل لواء المناقحة عن حجية الشر المجاني لنفي وجود الخالق، هو "الشر الذي لا يقود إلى خير يوازيه أو يربو عليه". وقد بلور صيغة الحجة على الهيئة الآتية: "١- توجد حالات معاناة شديدة بإمكان الإله القدير العليم أن يمنعها دون تفويت خير أكبر منها أو السماح لشر يوازيها أو يربو عليها، ٢- على الإله العليم، كامل الخيرية أن يمنع وقوع كل معاناة شديدة إلا أن يؤدي المنع إلى تفويت خير أعظم من هذه المعاناة أو السماح لشر يوازيها أو يربو عليها؛ ٣- إذن، لا يوجد إله قدير، عليم، كامل الخيرية".^٢ وقد ساق لها مثالين شهيرين؛ الأول: الموت البطيء والمؤلّم لغزالة في حريق غابة. والثاني: هو اغتصاب طفلة سنها خمس سنوات وقتلها على يد عشيق أمها.

نقض بناء حجة الشر المجاني

أولاً: تحويلة مور:

تقول الفيلسوفة "جان ماري ترو": "إنكم تبتدون الجدل بديهية موهومة تحتاج إلى نظر، فإن مقتضى الانضباط العقلي أن نقول: ليس بإمكاننا تفسير حالات تبدو ظاهرياً كشر مجاني، حتى نعلم إن كانت مجانية أم لا، وليس بإمكاننا أبداً أن نقطع بهذا الأمر إلا إذا كنّا متأكدين من الوضع الأنطولوجي لله، وبما أنه ليس بإمكاننا نفي أو إثبات وجود الله عبر حجة الشر المجاني؛ فعلياً أن نثبت أولاً وجوده أو عدمه، وحتى يتم ذلك، ليس بإمكاننا أن نعرف إن كانت هناك حالات شر مجاني"^٣. يسمى هذا الاستدلال باسم تحويلة "ج.إ.مور" الفيلسوف الإنجليزي الذي نبّه لهذه

1 The Necessity of Gratuitous Evil, William Hasker (Faith and Philosophy) 9 (1):23-44 (1992)

2 THE PROBLEM OF EVIL AND SOME. VARIETIES OF ATHEISM. WILLIAM L. ROWE

3 Fallacies in the argument from gratuitous suffering- 1986, by Jane Mary Trau , "in the new scholasticism 60 (4):489.

الحجة^١. وقد عبر اللاهوتي والفيلسوف "ف. ج. فتزباترك" عن صميم هذا المعنى بقوله: "إذا استطاع المؤمن بإله أن يستظهر حجة صائبة لوجود الله، فسيكون معذوراً في قوله: إنَّه لا بدَّ أن هناك تفسيرات لتألم الحيوان بما يتره بصورة تامة العناية الإلهية عن الظلم، رغم الغياب الظاهري لهذا التفسير"^٢. إنَّ قلب الحجة قائم على "عدم يقينية" مشكلة الشر المجاني" وأنَّ إثبات وجود الله من عدمه يحتاج إلى "أدلة خارجية"، وهنا نستطيع أن نسأل: هل يعجز الإله أن يجعل وراء كل ما يبدو "شراً مجانياً" حكمة وتعويضاً؟ إنَّ قال الملحد: إذا افترضنا وجود إله، فإنَّ العقل لا يمنع من وجود هذه الحكمة وهذا التعويض للمبتلى؛ سقط اعتراضه، وإذا قال: إنَّ هذا الأمر ممتنع عقلاً؛ طوب بالذليل العقلي ولا دليل، واستبان عندها أنَّه لا يعرف معنى كمال الألوهية. وهذا إلزام قوي قاطع لدعوى الملحد، بل هو من أقوى الردود وأعظمها؛ إذ هو يقلب معادلة الملحد من "١- وجود شر مجاني هو أمر يقيني، ٢- وجود إله هو مجرد فرضية بحاجة إلى بحث، ٣- وجود الشر المجاني حجة على نفي وجود إله؛ لأنَّه لا يمكن أن يوجد إله قدير وعليم ورحيم ويوجد في خلقه شر مجاني؛ ٤- إذن لا وجود لإله" إلى المعادلة المعقولة التي برهنا عليها: "١- الأدلة المادية في الكون وفي التجريد العقلي قاطعة بوجود إله، ٢- وجود الشر المجاني مجرد فرضية بحاجة إلى بحث، ٣- يقيننا العقلي أنَّ هناك إله قديراً وعليماً ورحيماً يقتضي أن نلزم عقولنا بالقول: إنَّ هذا الإله قادر على أن يخفي وراء ما يبدو شراً مجانياً حكماً وخيراً؛ ٤- إذن لا وجود لشر مجاني".

ثانياً: حدود العقل البشري:

يقول الفيلسوف "ف. ج. فتزباترك"^٣ شارحاً الإجراء العقلي الذي يجب أن يتم للحكم على مجموعة شرور بعينها أنها مجانية بشكل استثنائي: "على المرء أن يظهر من خلال مقارنة كل أنواع الشر الموجودة ودرجاتها وطريقة توزيعها في العالم، أنَّ هذه المجموعة الكاملة من الشرور مطلوب وجودها، كشرط جوهري لتحقيق الخير المطلوب، هذا المشروع لا يمكن أن يتحقق واقعاً إلَّا إذا افترض من البداية أنَّ فهمنا لطبيعة الأمور الخيرة التي يريد أن يوجدها الله، وإدراكنا للعلاقات الضرورية التي من الممكن أن تكون بين الخيرات والأنواع الممكنة من الشرور، يكفيان لضمان فرصة نجاح مضمونة في محاولتنا". وقد تقرر استحالة هذا الإجراء على يد الفيلسوف "ويليام ألتون" حيث يقول:

1 The Triumph of God over Evil: Theodicy for a World of Suffering (Strategic Initiatives in Evangelical Theology) – April 24, 2008, by William Hasker .

2 The Onus of Proof in Arguments about the Problem of Evil ,F. J. Fitzpatrick , Religious Studies, Vol. 17, No. 1 (Mar., 1981), pp. 19-38

3 Ibid,p.25

"الأحكام المطلوبة من الدليل الاستقرائي للشر ذات طابع طموح خاص جداً وهائل من حيث المبدأ، وليست ملكاتنا المعرفية التي تفيدنا عادة بصورة جيدة في الأعمال الأضيق مؤهلة لذلك"^١. ويعمل "ألستون" قصور الملكات المعرفية للعقل بـ "١- قصور المعلومات: وهي تبدأ من أسرار القلب البشري إلى عناصر الكون وتكوينه، وتشمل الماضي السحيق والمستقبل الآتي. ٢- التعقيد: الذي يتعلق بالموضوع أكبر من طاقتنا ومتداخل العناصر على صورة أعظم من قدرتنا على التفكيك. ٣- صعوبة تحديد ما هو ممكن أو ضروري ميتافيزيقياً؛ لأنه خارج دائرة الإدراك البشري، ٤- جهلنا بالقائمة التامة للممكنات: فنحن مطالبون باستحضار جميع الممكنات لاستنباط نتيجة من نفيها، وهي مسألة هامة جداً في حديثنا عن الحكمة الإلهية من فعل الله سبحانه في خلقه مما يبدو ظاهراً كشر محض. ٥- جهلنا بالقائمة التامة للقيم: استخلاص دلالة إيجابية من الفعل البشري أو الحدث الكوني لنفي أنه شر أو النظر إليه سلباً على أنه شر يقتضي إدراكاً لجميع القيم الإيجابية أو السلبية التي من الممكن أن تتصل بهذا الفعل. ٦- حدود ملكاتنا في شأن تقديم أحكام قيمية كاملة: تظهر أساساً في صعوبة إصدار أحكام مقارنة بشأن قضايا كبرى معقدة"^٢. إن عقل الملحد يتصور الشر نتاجاً لتطور خطي (linear progression) بينما تقضي ديناميكية الشواش ثلاثة أمور تتعلق بصورة عميقة بمسألة الشر؛ "أولها: الترابط الهائل بين أفراد الكون وأحداثه، وهو ما يدل على ارتباط ما يحصل في الكون من تغيرات بما يتتالي من أحداث، وثانيها: أن عظيم الأحداث وبسيطها وعرضيها سواء في تشكيل أحداث المستقبل، ثالثها: أن تشعب الأحداث يمنعنا أن نحسم نظرتنا التنبؤية"^٣. والشر بذلك هو حصيلة شبكة بالغة التعقيد والتداخل، لا تعرف مقدماته لكثرتها وتنوعها وتشابكها، تصنعه الأحداث الجلييلة والأمور الحقيرة، وهو ما يضطرنا إلى الإقرار بخفاء الجزء الأكبر من السلسلة السببية لما يطرأ من شر في وجودنا الكوني، ومن ثم نفقد القدرة على الإحاطة التامة

1 The inductive argument from evil and the human cognitive condition, William P. Alston ,Philosophical Perspectives 5: p65 (1991)

2 Ibid, p:59-60

3 Chaos theory and the problem of evil,Jennifer Jeanine Thweatt-Bates. P: 69:71.

بالعلل والحكم من وجوده وتمظهراته، يقول الفيلسوف "ستفين ج. وكسترا" في رده على "ويليام رو": "نظراً للفارق بين عدم محدودية علم الله، ومحدودية علمنا؛ فإنَّ غموض الشر في هذا العالم هو ما علينا أن نتوقعه"¹.

ثالثاً: عالم الفوضى:

إنَّ العالم الذي تُعطل فيه النواميس كل حين، حيث تتدخل الملائكة لإنقاذ الغزلان من خطر أن تحترق وهي حية، أو تختفي الخراف بصورة إعجازية من أمام الأسود، أو يُجمد فيه جسد المعتصب؛ هو عالم معيب، والعيب فيه في أقل اعتبار كما يقول "بيتر فان": "هو في نفس حجم العيب المتمثل في وجود أنماط من المعاناة مساوية خلقياً للموجود في هذا العالم"²؛ لأنه سيصبح عالماً فوضوياً على حد تعبير "دانيال سبايدر" لانتفاء العلاقات الدائمة المنتظمة بين الأحداث المتتالية، فلو رميت كرة إلى الأعلى فقد تترل مرة، وتستمر في الارتفاع في أخرى، وتميل في ثالثة يميناً أو شمالاً دون داعٍ فيزيائي، إنَّ عالماً بلا ناموس طبيعي مستقر بإمكاننا أن نتبأ فيه بمآل حركتنا وأفعالنا، وهو عالم لا معنى فيه للإرادة والاختيار والحرية"³. بل عالم ينعدم فيه وجود الكائن الأخلاقي؛ إذ الخير لا يتوقع من إنسان إلا إذا كانت له نية خاصة لإحداث أثر مخصوص، وكذلك الشر، فما الخير والشر في عالم الفوضى العشوائية أو الخوارق المستقرة؟ وأين القدرة على الاختيار أو الفعل في عالم اللاناموس؟! "إنَّ الإلزام السنني... شرط أساسي ليكون العالم مسرحاً أخلاقياً"⁴، ثم إنَّ تصور وجود إله يتدخل بصورة مكثفة لنقض النواميس الكونية المدركة عياناً يعني أنَّ هذا الإله قد خلق عالماً فاسداً مما اضطره إلى التدخل بلا توقف ليصلح فساد خلقه، وهذا تصور ينقض نفسه ابتداءً، يقول الفيلسوف "بروس لتل": "إنَّ السماح بوجود الشر في عالم تحكمه القوانين الكونية المستقرة يلزم منه وجود الشر

- 1 The Humean obstacle to evidential arguments from suffering: On avoiding the evils of "appearance", Stephen J. Wykstra, International Journal for Philosophy of Religion p92.
- 2 The Problem of Evil 1st Edition .by Peter van Inwagen P.114
- 3 GOD, EVIL, AND SUFFERING , Daniel Howard-Snyder, In Reason for the Hope Within (Eerdmans 1999), ed. Michael J. Murray
- 4 Frederick R. Tennant. Philosophical Theology II. (Cambridge : Cambridge University Press, 1928), pp (199-200)

المجاني؛ لأن هذه القوانين لا تحابي أحداً ولا تميز بين حال وآخر، وهو ما يسمح لنا بتقرير أن وجود هذا الشر المجاني لا ينال من الكمال الأخلاقي لله^٢.

رابعاً: منطق العقوبات ومنطق التعويض:

في الحياة الآخرة: إن اختزال الوجود الإنساني في هذه الحياة الدنيا وقطعه عن كل وجود آخر، يصنع صفة السلبية على ما يؤذي الإنسان، إن الحياة الأخرى في التصور الإسلامي هي تنمة لازمة للفصل الأول من الوجود البشري في الدنيا، وستظل الحياة الدنيا كما نعيشها لا تعكس في أوجه منها العدالة التي نريدها، طالما أغفلنا الحياة الآخرة، حيث يقع الجزاء والحساب، فالجحيم الأبدى لمن مارس الشر الأخلاقي كمجرمي الحروب وصانعي المآسي العالمية، والتعويض بالجنة والنعيم المستدام لمن وقع عليه الأذى والظلم والجور، إن طفلة "ويليام رو" المغتصبة التي لا تحمل وزر إجرام مغتصبها ولا هلكتها في الدنيا، هي في الجنة عوضاً عن بلائها، وقد جاء في الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وسلم: "يُودُّ أَهْلُ الْعَافِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُعْطَى أَهْلُ الْبَلَاءِ الثَّوَابَ لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرْصَتٍ فِي الدُّنْيَا بِالْمَقَارِيضِ".

في الحياة الدنيا: وقد يسري منطق العقوبات في الدنيا على مغتصب طفلة "ويليام رو" سواء بالفعل الإلهي المباشر، أو بالتنفيذ لما أنزل من الشرائع التي فيها عقوبات رادعة له ولكافة ممارسي الشر الأخلاقي، وكذلك فإن منطق التعويض قد يفعل في الدنيا قبل الآخرة عبر الهبات الإلهية، بحيث تعود على من لحقه أذى أو ضرر - سواء أكان ذلك نتيجة لشر أخلاقي أو مادي - بسعادة وتوفيق في العمل والزواج والصحة والمال والأبناء وكافة صور الحياة.

خامساً: مشكلة الخير المجاني:

المقصود بالخير المجاني في عالم ميكانيكي أو عشوائي يسير على غير هدى هو في أضيق تعريف ممكن: "كل خير لا يخدم وظيفة إبقاء الإنسان أو الكائنات الحية على قيد الحياة، أو لا يقتصر على ذلك"، إن عبقرية التأصيل المعرفي والحفر الفكري والاختراع ليست شرطاً للبقاء، ولا محل لها في آليات الطفرات العشوائية والاصطفاء الطبيعي، ولا يمكن للداروينية أن تفسر وجود عقول كـ "نيوتن وابن حزم والشافعي وأينشتاين"، وتسمى هذه الحقيقة اصطلاحاً بمفارقة والاس "Wallace's paradox"، يقول العالم التطوري "س. أو. سميث": "ربما كنا أقرب من قبل إلى فهم

١ يقول المؤلف إن خلافه مع طرح "بروس ليتل" هو خلاف وصفي حيث لا يكون الشر وفق هذا الطرح مجانياً إنما يكون معللاً.

2 God and Evil_ Chad Meister and James K. Dew P41

كيف نشأ العالم الحي على سطح هذا الكوكب... ولكننا لسنا أقرب في الفهم من داروين بعد قرن ونصف من معرفة أمر كيفية الوعي الحسي¹. فالفهم المادي عاجز عن تفسير الوعي نفسه فضلاً عن الوعي الفاضل عند الإنسان، ومن مظاهر الخير المجانية هذا الجمال المفرح في الكائنات؛ إذ إننا إن قبلنا جدلاً الداروينية كتفسير أقصى لظهور هذه الكائنات، فسنبقى نسأل عن الأشكال الجمالية الممتعة في الكون التي لا تقتصر بسبب جبري لوجودها كـ "الجمال المنعش لريش الطاووس" الذي سبب إشكالية حقيقية لداروين، حيث يقول في رسالة إلى صديقه عالم النبات الأمريكي المشهور "أسا غراي" سنة 1860م، أي بعد سنة من نشر "أصل الأنواع": "منظر ريش ذيل الطاووس جعلني أشعر بالسقم كلما أمعنت النظر فيه"². وقد حاول تفسير هذا الجمال عبر تطبيق آلية الاصطفاء الجنسي فيما بعد، لكن آل هذا التفسير إلى إشكالية أخرى "حيث وُلد عنده انبهاراً بوجود حاسة تذوق الجمال عند أنثى الطاووس"³، وتبيّن فيما بعد سقوط هذا التفسير على يد مجموعة من علماء اليابان وعلى رأسهم "ماريكو تكهاشي" آلت أبحاثهم التي استمرت سبع سنوات إلى أن إناث الطاووس لا تهتم بجمال الذكور عند التزاوج⁴، وهذا الجمال المشاهد التي تفوح به الطبيعة في كل مظاهرها محل إجماع، يقول المصور الأمريكي "ويسلر"⁵: "إن الطبيعة تحوي من حيث الشكل واللون جميع العناصر التي تحويها اللوحات الفنية، ولكنها إنما تحويها كما يحوي السلم الموسيقي جميع الأنغام الموسيقية المعروفة"، ويقول الفيلسوف الألماني "ليبنتر"⁶: "إن الكون يبدو سلماً من الأحياء الشاعرة تؤلف كلاً واحداً منسجماً انسجماً تاماً فيما بينه، في الجبال والسهول والبحار والنجوم التي تتصل بعضها ببعض وبسائر الكائنات الحية، من نبات وحيوان وإنسان، هذا الانسجام الذي يتحقق في الكون يجعل العالم الذي نعيش فيه أحسن العوالم الممكنة"؛ بل إن هذا الجمال مهيم حتى على عالم الرياضيات والنظريات الفيزيائية يقول "أينشتاين":

-
- 1 Darwin's unsolved problem: the place of consciousness in an evolutionary world, Smith CU1, in Journal of the history of neurosciences 19:2, 3 may 2010: p 119.
 - 2 The Correspondence of Charles Darwin, Volume 20. 1872, Part of The Correspondence of Charles Darwin, University of Cambridge, Date Published: July 2013
 - 3 Darwin, The Descent of man (London: John Murray, 1888) p.349
 - 4 M. takahashi et al., In Animal Behaviour 75(4):1209-1219, 2008.
 - 5 فصول في علم الجمال، عبد الرؤوف برجواوي، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ص 54.
 - 6 Ibid, p 309

"النظريات الفيزيائية الوحيدة التي نحن على استعداد لقبولها هي الجميلة منها"^١. ويقول "ج. هـ. هاردي": "يجب أن تكون أنماط علماء الرياضيات جميلة كأنماط الرسّامين والشعراء، فالأفكار كالألوان والكلمات، لا بدّ أن تتألف بصورة متناسقة، إنّ الجمال هو أول اختبار: لا يوجد محل دائم في العالم للرياضيات القبيحة"^٢. إنّ الخير المجاني الساري في مادة الكون وصورته هو دليل على وجود الخالق، يقول أستاذ التصميم والطبيعة "ستيورات برجس": "الجمال الزائد (عن الضرورة)...يمثل حجة قوية جداً للتصميم؛ لأنه لا يوجد سبب ميكانيكي لنشأة جمال المظهر"^٣.

(د) الحيوان والشر المجاني

بنية المشكلة:

يتمثل التحدي الإلهادي في مشكلة ألم الحيوانات في أنّنا لا نملك أن نمدّ الحكم من الأذى الذي يطال الإنسان إليها، فهي لا تختبر بالصبر على البلاء، ولا تعاقب به في الدنيا، ولا تنمي شخصيتها.

خلفيات المشكلة:

أولاً: "صعود الفكر الدارويني في عالم البيولوجيا ونفي التميّز السلالي للإنسان، والثورة الإيكولوجية^٤، وتزايد اهتمام الإنسان الغربي بإلحاق الحيوانات الأليفة بمجموع الأسرة، كالقطط والكلاب".

ثانياً: "نسبة المشاعر الإنسانية إلى الكائنات غير البشرية بما يمثل نوعاً صريحاً من المغالطات يسمى "anthropopathism" يقول "ستيورات جثري": "إنّ هذا الطبع ليس محصوراً في نظراتنا إلى الحيوانات الأخرى، وإنّما هو أوسع وأعمق في كل أفكارنا وأعمالنا، إنّه يلوّن إدراكنا ويؤثر في وعينا عبر الحياة، كحال حديثنا إلى

1 It Must Be Beautiful: Great Equations of Modern Science ,by Graham Farmelo (Editor)

2 Truth or Beauty: Science and the Quest for Order – November 27, 2012 ,by David Orrell (Author) ,p.3

3 Hallmarks of Design: Evidence of Purposeful Design and Beauty in Nature (Creationpoints) – (Epsom : Day One, revd edn,2002) pp:73-74

٤ علم البيئة هو الدراسة العلمية لتوزع وتلاؤم الكائنات الحية مع بيئاتها المحيطة وكيف تتأثر هذه الكائنات بالعلاقات المتبادلة بين الأحياء كافة وبين بيئاتها المحيطة.

النبات والسيارات وأجهزة الكمبيوتر...، حقيقة فإنّ الدافع لاكتشاف صفحات الوجوه على السحب والأغصان المتشابكة والأشكال الأخرى غير البشرية، والشعور بوجود إنسان من خلال أصوات مبهمّة في الليل، يبدو أمرًا عالميًا¹.

الجواب عن المشكلة:

أولاً: "عن وعي الحيوانات بألمها": تتفق الدراسات الفلسفية لظاهرة الوعي "consciousness" على أنّ طبيعة الوعي في الكائنات الحية ليست على شكل واحد؛ وإنما هناك عدة مفاهيم ودرجات للوعي². فالحيوانات - فيما يبدو - لا تملك رؤية ذاتية بتجربتها "firset-person perspective on their experiences"؛ لذلك فلنا أن نشك في أنّها قادرة على أن تحمل إحساسًا واعياً بنفسها غير متقطع عبر مدى حياتها، يقول "ل. ب. ويليامز"³: "يبدو أنّ الحيوانات لا تملك القدرة على مراكمة تجربتها مع الألم؛ لأنّها لا تفكر في معاناتها؛ ولذلك فهي لا تعيش تجربة الألم على الصورة التي نعيشها، إنّ طبيعة النسيان فيها تحميها من معاناة تراكم تجربة الماضي مع الحاضر، أو بعبارة أخرى تعيش الحيوانات تجربة الماضي والحاضر باعتبارها واحدة، فهي ترى الماضي والحاضر في صورة الآن، أي: إنّ تجربة الماضي تنبّه الحاضر ليكونا واحدًا"، "ولما كان الألم يلحق بـ"الوعي" لا بـ"الشعور" لأنّه أقرب إلى البنيان السيكولوجي منه إلى الفيزيولوجي"⁴؛ فإنّ "الحيوانات لا تعيش الألم كما نعيشه"⁵.

- 1 Anthropomorphism: a definition and a theory, Maintained and operated by, Stewart E. Guthrie In R. Mitchell, Nicholas S. Thompson & H. L. Miles (eds.), Anthropomorphism, Anecdotes, and Animals. Suny Press 50--58 (1997)
- 2 Nature Red in Tooth and Claw: Theism and the Problem of Animal Suffering 1st Edition by Michael Murray (Author)
- 3 Leslie Perrce Williams, ed., Buffon: A Life in Natural History (Itheca, N.y Cornell University press, 1997) p.245>
- 4 The Concept of Mind 1st Edition by Gilbert Ryle (Author), Daniel C. Dennett (Introduction)
- 5 Theodicy and Animal Pain, Peter Harrison, Philosophy, Vol. 64, No. 247 Jan., 1989), p: 91.

ثانياً: لا يلزم ضرورة من وجود جهاز عصبي عند الحيوانات، أن هذه الكائنات تتألم إذا حدثت استجابة شرطية عند إصابتها بأذى، أو أن حجم استجابتها للأذى يعكس حجم تألمها؛ فقد يكون شكل الاستجابة للأذى مجرد تعبير عن انقباضات آلية لا غير، "خاصة إذا كان الجهاز العصبي غير معقد أو لا يمتد إلى أطراف كامل الأعضاء".¹ كما أن طبيعة افتراس الكثير من الحيوانات لبعضها لا تورث ألماً كبيراً، وقد شهد عالم الإثنولوجيا البريطاني الشهير "جون غودال" أن تجربة مشاهدة افتراس الحيوانات الضارية لضحاياها الحية، تظهر أنه رغم بشاعة المنظر للرائي إلا أن الضحايا تموت بسرعة في غضون دقائق؛ وبالتالي لا تشعر بألم كثير²، يقول "دايفيد بلريدج" في السياق نفسه: "ليس هجوم سمك القرش بالضرورة عنيفاً إلى درجة أن يجرح ضحيته بصورة بالغة، من الممكن أن يكون قطع اللحم بأسنان سمك القرش أنهم عاشوا اضطراباً بسيطاً أو لا اضطراب، ولم يدرك الكثير منهم أن أمراً خطيراً أصابهم".⁴

ثالثاً: الأصل في خلق الحيوانات أنها مخلوقة لأجل الإنسان، فليست الحكمة من وجودها غير أنها مسخرة للإنسان سواء بطريق مباشر (الأكل من لحمها، والإفادة من حليبها وصفوها) أو غير المباشر (التوازن الطبيعي) الذي يقتضي تضحيات من الأجزاء، فصلاح المنظومة البيئية يلزم منه أن يكون هناك تكامل بين أفرادها؛ فيصبح موت الحيوانات سبباً لبقاء النوع الحيواني⁵.

رابعاً: قد أمر الله سبحانه بالإحسان إلى الحيوانات، وقد تواترت الأحاديث بهذا المعنى؛ فقد روى أبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ ببعيرٍ قد لَحِقَ ظهرُهُ ببطنه، فقال: "اتَّقُوا اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ الْمُعْجَمَةِ، فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً، وَكُلُّوهَا صَالِحَةً". وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "عُدِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هَرَّةٍ رَبَطَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارُ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا سَقَّتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ" رواه البخاري ومسلم. وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِنُورٍ قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ، فَزَعَتْ لَهُ بِمَوْقِفِهَا، فَعَفَّرَ لَهَا" رواه مسلم. بل ورد النهي

1 Letters to Doubting Thoma ,A Case for the Existence of God, by C. Stephen Layman

٢ علم دراسة سلوك الحيوانات.

3 Innocent Killers Paperback – January 1, 1970 by Hugo Van Lawick-Goodall (Author), Jane Van Lawick-Goodall (Author)

4 Shark Attack Paperback – August, 1978 by H. David Baldrige (Author)

5 THE PROBLEM OF EVIL. – 1934 by Rev. Hubert S. Box (Author) p.p.50-53.

عن التحريش بين الحيوانات: فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التحريش بين البهائم. رواه أبو داود والترمذي.

خامساً: الذي أمر بالإحسان لا يمتنع عليه أن يعوض هذه الحيوانات بالنعم والهبات بدلاً مما تعرضت له من عذابات وآلام سواء عن طريق الشر المادي أو الأخلاقي، فضلاً على أن ظاهر الألم الذي يصيب الحيوان لا يصح القول عنه إنه "شر مجاني" فهو لازم له، فإحساسه بالجوع يحفزه على تطلب الغذاء، وألمه منذر له بأسباب الأذى والمهلك، فالألم على هذا الوجه هو من أسباب الحفاظ على الحياة.

في الحكمة فيما يظهر أنه شر مجاني

ما هي صورة الكون الخالي من الشر المجاني في حس المعارض؟ إنه عالم محدود الآلام، يدل كل شر فيه على حكمة وراءه، فما إن تبصر عينك شخصاً يتوجع حتى تعلم أن هناك خيراً يوازي هذا الأذى أو يربو عليه. إنه كون بسيط شفاف، لا يزعج العقل ولا يقلق النفس!، تعارض الطبيعة الشفافة للكون الذي عقلنه الملحد حقيقة الإيمان الذي يطلبه الرب، والذي هو إيمان فطري برهاني ولكنه محاصر بالشبهات، وبيقين المؤمن بحقيقة الخلق والعناية يتغلب على الشبهات، فوجود شبهات تفوق في ظاهرها الحد الأقصى المفهوم فهماً مباشراً هو ما يتوقعه المؤمن في عالم يُمتحن فيه بالشبهات كما بالشهوات؛ ولذلك بدأت سورة البقرة بمدح المؤمنين الذين من صفاتهم أنهم "يؤمنون بالغيب".

عن الدور الوظيفي للشر

إن بحث الإنسان عن معنى هو المحرك الأساسي لحياته، وليس هو "عقلنة ثانوية" لموجهاته الغرائزية¹ يقول عالم النفس "فكتور فرنكل" إن الكشف عن معنى للحياة يكون بثلاث طرق؛ أحدها: اتخاذ موقف من معاناة لا سبيل لتجاوزها، وذلك بتحويل المأساة إلى نصر، والمأزق إلى منجز إيجابي، وحتى عندما نكون عاجزين عن تغيير الواقع، نسعى إلى تغيير أنفسنا²؛ "إذ إن صناعة النفس... لا يمكن أن تكون في واقع حامل بلا تأثير ولا خيارات"¹، إن عالماً يكون فيه الشر

1 Man's Search for Meaning – June 1, 2006 by Viktor E. Frankl (Author), William J. Winslade (Afterword), Harold S. Kushner (Foreword)

2 Ibid, p١٣٢

هيناً ليناً خفيفاً حتى إنَّ الإنسان لا يشعر بوكزه ووخزه ولا يؤثّر في فعله، هو عالم يليق بما يسميه "سونيرن" عالم لُعبَة "Toy World"، عالم ليس فيه شيء مهم على الحقيقة، عالم ليس بإمكان أحد فيه أن يؤذي أحداً، عالم ليس لإرادة أحد أو عمله أثر حقيقي^٢. إنَّه وجود وهمي تتحول فيه ذواتنا إلى وهم، وقد أجاب الفيلسوف "سنايدر" عن أشهر الاعتراضات الإلحادية وهي: "إذا كان الشر ضرورة تفيد الإنسان في تفعيل حياته وتنمية شخصيته وتهدئتها فلمَ لم يخلق الله عالماً يكون فيه هذا الشر وهمياً؟ "Illusory evil" عن طريق التفاعل مع آلات تماثلية، يُكون خبرته وتجربته من خلالها دون أن يناله أذى؟!، حيث قال: "إنَّ تحويل هذا الشر من وجود موضوعي إلى مجرد إيجاء آلي مبرمج، قد ينمّي لنا شخصيتنا في ذاتها، لكنه سيفقد العالم خيراً كثيراً، في هذا العالم، لن يعين أحد أحداً، ولن يعان أحد من أحد، لن يتعاطف أحد مع أحد، ولن يغفر أحد لأحد، ولن يعرض أحد من أحد، ولن يعجب أو يمجّد أحد أحداً؛ لأنَّه يسعى إلى هدف نبيل، ولن يهب أحد من ماله أو وقته أو موهبته شيئاً للمحتاجين... باختصار، إذا أضحت تجربتنا لتنمية شخصيتنا مجرد توهم حتى لا نشعر بوخز الألم؛ فإنَّ عالماً في هذه الحال سيكون ضيقاً جداً، خلواً من كل اتصال حقيقي مع الغير"^٣.

العالم في التصور الإلحادي

قال العقاد في عبارة مائة شفاقة تفضح شقاوة العالم الذي صنعه الملحد في أحلامه السكرى: "لنرجع إلى المقابلة بين هذا العالم وبين الذي يتخيله أولئك المعارضون وافيّاً بالقصد أو جديراً بحكمة الله. فإن كان هو أقرب إلى التصور فقد صدقوا وأصابوا، وإن كان العالم الذي نحن فيه هو الأقرب إلى التصور فقد سقط الاعتراض، فما العالم الذي يتخيل المعارضون أنَّه أجدر من عالماً هذا بحكمة الله وقصد المدبر المريد؟

هو عالم لا نقص فيه فلا نمو فيه، ولا آباء ولا أبناء، ولا تفاوت في السن والتهيؤ والاستعداد ولا تقابل في الجنس بين الذكور والإناث، بل جيل واحد خالد على المدى لا يموت ولا يتطلب الغذاء والدواء، عالم لا نقص فيه فلا حدود

1 John Hick "An Irenaen Theodicy", in Encountering Evil: Live Options in Theodicy. Ed. Stephen T. Davis (Edinburgh: John Knox press, 1981) p: 46

2 Providence and the Problem of Evil 1st Edition by Richard Swinburne (Author)

3 GOD, EVIL, AND SUFFERING ,Daniel Howard-Snyder, In Reason for the Hope Within (Eerdmans 1999), ed. Michael J. Murray p 98-99

فيه، وكف يُوجد الناس بلا حدود بين واحد منهم وأخيه؟ بل لماذا يُوجد الألوفا ومئات الألوفا نسخة واحدة لا فرق فيها بين أحد وأحد، ولا محل فيها للاختلاف. إذ كان الاختلاف يستدعي نقص صفة هنا ووجودها هناك؟ إذن يُخلق إنسان واحد يُحقق معنى الإنسانية كلها ولا يكون فيه نقصٌ ولا تعدد ولا تكون له بداية ولا نهاية. فذلك إذن إله آخر مستمتع بكل صفات الكمال والدوام!

عالمهم المتخيل هو عالم لا حرمان فيه، فلا ينتظر فيه الحي شيئاً يجيء به الغد ولا يشفق اليوم إلى مجهول، بل ماذا نقول؟ أنقول الغد واليوم؟ ومن أين يأتي الغد واليوم في عالم لا تغاير فيه ولا تنوع في التراكيب والحركات؟ إنما يأتي اليوم والغد من تغاير الكواكب بالحركة والضخامة والدوران. فإذا بطل التغاير والتركيب فلا شمس ولا أرض ولا قمر ولا أيام ولا أعوام.

هو عالم لا ألم فيه ولا اجتهاد فيه، ولا اتقاء لمخذور ولا اغتباط بمنشود. هو عالم لا أمل فيه ولا محبة ولا حنان ولا صبر ولا جزع ولا رهبة ولا اتصال بين مخلوق ومخلوق؛ لأنّ الاتصال تكملة ولا حاجة إلى التكملة لأرباب الكمال. هو عالم لا ظلم فيه، فلا فضيلة ولا رذيلة؛ لأنّ الفاضل هو الإنسان الذي يعمل الخير ولو شقي به ويتجنب الشر ولو طاب له مثواه. فإذا ضمن الجزاء العاجل على أعماله أولاً فأولاً فلا فضل له على الشرير. وإذا وجد العالم وفيه أشرار يجزون أبداً بالعقاب وأخيار يجزون أبداً بالثواب، فذلك ظلم أكبر من هذا الظلم الذي ياباه المنكرون للقصص والتدبير. هو عالم لا فرق فيه بين الأبد الأبيد واللحظة العابرة؛ لأنك تريد في كل لحظة عابرة من لحظاته أن تجمع حكمة الآباد، وأن تكون مقاصدها هي مقاصد الكون الذي لا تعرف نهاية طرفيه. فلا انتظار لبقية الزمن ولا مُوجب للانتظار ولن يحيا المخلوق المحدود بغير انتظار إلا كانت في حسه لوئناً آخر من ألوان الفناء".^١

١ العقاد، الله.. كتاب في نشأة العقيدة الإلهية، بيروت، المكتبة العصرية، د.ت، ص ٢٢٥-٢٢٧.